مجمع الأحيـــاء

كتاب العقاد تقدير قراءته الآن

كان فرحي بظهور هذا الكتاب فرحاً عظيما ، لأن إعادة طبعه كانت رغبة ، بل أمنية ، اشتهيتها منذ بضعة عشر عاماً . وظهوره في طبعته الثالثة يسد نقصاً في المكتبة المصرية ، لأن طبعتيه الأوليين نفدتا ولم نستطع الحصول عليه لندرة وجوده ، فما ظهرت هذه الطبعة تلقيتها فرحاً فما هو هذا الكتاب ؟

إن مقدمات العقاد لكتبه هي غالباً مفاتيح لشخصيته العظيمة المتعددة النواحي في تلك الكتب العديدة ، وهي شروح للظروف التي أوحت بها ، وللمؤثرات التي أحاطت به فكتبها ، فلنرجع إلى تصدير الطبعة الثالثة حيث يقول : « هذه الرسالة وليدة الحرب العالمية الماضية ... شغلني موضوعها يومئذ ، لأنه موضوع الصراع في الحياة الإنسانية ، بل في الحياة عامة ، وأحببت أن أعرف لهذا الصراع معنى يطمئن إليه الضمير ، فانتهيت بالرسالة إلى معنى فيه بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، وهو أن الحق والنواميس الطبيعية يتلاقيان »

ويقول فيها أيضاً : « وها هي ذي الطبعة الثالثة لمجمع الأحياء تصدر والدنيا مشغولة بحرب عالمية أخرى هي أشد هولا وأوسع مدى وأقوى اختلافاً على المبادئ والآراء من الحرب التي نشبت قبل ثلاثين سنة ، فإذا كان هناك خاطر يرد على الذهن في تصدير هذه الطبعة — خلال هذه الحرب القائمة — فذلك الخاطر مما يزكي موضوع الرسالة ويؤيد نتيجتها ، أو يسير بنا في وجهتها ، وهي أن الصراع الأكبر الذي نشهده اليوم سينتهي أيضاً إلى عاقبة فيها بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، لأنها تناقض القوة العمياء : قوة الحديد والنار ، وتشايع القوة البصيرة : قوة العدل والحرية » .

والعقاد يبسط في مقدمة الطبعة الثانية آراء عميقة : منها أن الخير والشر في هذه الدنيا لا ينفصلان ، وأن أشرف ما يعرفه الناس من الحق غيرتهم على ما يعتقدون أنه الحق ، ولكن الحق الذي نعرفه غير الحق الذي تتوخاه حركات الكون ، والسعادة المطلقة لفرد واحد معناها إبادة مطلقة للنوع ، وكثيرون من الخلق يتكون من تفاوت الأعمار والحظوظ ، فإذا تساوى الناس في كل شيء ، فأي دنيا تكون هذه وأي حياة ؟ ولو أن هؤلاء الشاكين صار إليهم أمر الكون لحاروا في تسييره فهدموه ، لأنهم لا يعرفون كيف يوفقون بين أجزائه المتفاوتة المختلفة ، لأنهم ناقصون ، ويحسبون أن الكون فوضى لأن جميع أجزائه غير كاملة ... فإذا أردنا حياة سعيدة أقرب إلى الكمال فلنفهمها بلغتها ، ولا نحاول التعبير عنها بلغتنا ، فقد صورت حقائقها مرة واحدة في كتاب نحن حروفه وكلماته وأرقامه ، فنحن إذن النتيجة لا المسألة ... والحروب دائماً تزلزل العقائد وتطفر بالناس والأخلاق ، وتقايسها طفرات أخرى غير المألوفة ، فتشكك قوماً وتجذب إلى الدين آخرين ... ولكنه يعتقد أن الغيرة على الحق هي روح الإنسانية ، أو هي مظهر أنانيتها وحب البقاء فيها ، فإذا أريدت حياة سعيدة ، فليسمع الناس صوت الطبيعة على سجيته قبل أن يضطروا إلى سماعه زمجرة ووعيداً ، وليسمعه كل إنسان على شاكلته : الشرير فيهادي في شره ، والأمة فتقضي على هذا الشرير ... وتسمعه الإنسانية فتنحى على الأمة التي تفرط في حقوق الحياة ، أو تمسخ عناصرها الباقية في الأمم إيثاراً لمنافعها المحدودة « وما دام هذا الصوت مسموع النداء ، فالعالم الإنساني ممدود البقاء »

وقد شرح العقاد هذه الآراء شرحا جميلا في رسالته ، على ألسنة الحيوان والإنسان ، فهو يتخيل الغاب ، وقد وجد إنسان نفسه في هذا الغاب ، ورأى هناك امرأة جميلة جليلة ولكنها ضريرة . هي الحياة ، أم المخلوقات ، وقد دعتهم إليها لتلقي إليهم

بنبأ خطير ، فأسرعوا من كل حدب وصوب يستمعون إليه ، وكل يراها فى الهيئة التى يصورها له وهمه وخياله . .

والقت عليهم كلامها فإذا هى تعاتب المخلوقات كلها على ما شجر بينها من خلاف وبغضاء وفتنة ... بطغى الأبيض على الأسود والأصفر على الأبيض وهذا على ذاك . وهى تدعوهم إلى الوئام فيما بينهم على اختلاف المذاهب والألوان ؛ ثم تشير على اليمامة — رمز السلام — لتحدثهم عن علم الإنسان وتواريخه وأديانه ، ليكون لهم منها عظة وعبرة وزاجر . فيؤمنون جميعا على كلامها ، وكلهم ظاهر الرضى والاقتناع !

ووقفت اليمامة تتكلم ، فذكرت حقائق من التاريخ الملموس المتكرر كل يوم ، بدأتها بالآية الكريمة « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض » . وشرحتها بالشواهد الملموسة ، وطالبت بالعدل والرحمة وبالأخاء بين القوى والضعيف !

وحينئذ وقف الثعلب قائلا : وعظتكم اليمامة وأوصتكم بالضعفاء وقالت لكم إن الله بارك فى مخلوقاته الضعيفة ليحرم عليكم قتلها ... ثم يعارض الثعلب اليمامة فى كل ما قالت ويتملق القوة والأقوياء فيفوز أثناء كلامه (بتصفيق من جانب الأسد !) — أقوى الحيوان — وهو يتكلم كلاما منطقيا عن العرف والقوانين ، فالسارق إذا سطا على بيت فضحوه ، والقاتل إذا سلب أمة أو أعمل فيها قتلا عظموه !

وينتهى الثعلب ، ويضج الآخرون بين معارض ومؤيد ، ثم يقوم القرد — وهو ممثل الطموح أو الطماع ... ولكنه المتدين ذو الضمير الحى المتمسك بالعدل والحقوق والقوانين والوحدة . فإن فى تماسك الضعفاء قوة ضد القوى الظالم الجبار . والديمقراطية الصحيحة السليمة جديرة بخلق شعوب نابغة صحيحة . أما الأرستقراطية المتعالية المتألهة فمآلها ومآل حثالة شعبها جميعا إلى الخسارة والفناء أو للصير الذى هو أسوأ من الفناء . هو حياة حياة السائمة الهالكة !

ويا لها من مفارقة عجيبة ! يدافع القرد عن الديمقراطية الصحيحة والأخاء والضمير ، ويحمل على مبدأ القوة الغاشمة . فيغضب النمر فيكاد يضربه فيتعلق القرد بأطراف الشجرة ، ثم يقف الأسد فيهابه النمر فيخرس فالقرد الفيلسوف لم يستطع دفاعا عن نفسه ، والأسد الشرس الأثيم أرهب النمر ، ولا فصاحة ولا بلاغة ولا فلسفة !

فأخلاق الأسد هى أخلاق بنى الإنسان الجهلة الأقوياء . القوة الظالمة الغاشمة ولا شىء غيرها !

ثم تكلمت المرأة . وكان كلامها طبيعياً ، تلك الثرثرة الأبدية الخالدة عن حقوقها التى اغتصبها منها الرجل ، وعن نبوغها فى أشياء وتقصيرها فى الأخرى ، ولكن الذنب ذنب الرجل ، وكأنها إن أصابت فمن وحى عبقريتها . وإن أخطأت فمن ظلم الرجل وتجنيه عليها !

وها هو الرجل يعقب عليها فيقول إنه كان يحذر كل الحذر من يوم تعمل المرأة فيه إلى نصيب ولو قليل من الحرية لأنها شديدة الطيش والغرور ، ولا تنال القليل حتى تطمع فى الكثير ، ولو أنها حررت كل شىء لما طمعت فى شىء ما ، وهى تخلط كل شىء بسفاسفها وألاعيبها .

ثم ينكر عليها الحرية المطلقة التى تطلبها ، وهى تطلبها لأنها نوع جديد من الزينة ، وهى لا تفهم لها معنى ...

وهذا كلام حق !

فالرأى الذى ينادى به العقاد هنا — منذ ثلاثين عاماً — يرجع العالم إليه فيندد بتلك الحرية التى منحها للمرأة فأساءتها . وقد خرجت كتب كثيرة هذه الأيام فى المناداة بهذا الرأى ...

ثم يقول الرجل : « أى مساواة للرجل تدعيها المرأة وهى إلى اليوم لا تجاريه فى صناعة الطهى لو شاركها فيه ؟ » .

فالمرأة لا تجيده وهى التى قضت الدهور والأجيال فى تعلمه ، لأنه صناعتها الأولى ! فهل ملته ؟ وإذا كانت ملت هذه الوظيفة الطبيعية التى خلقت لها والتى أهلتها لها الطبيعة — كما أهلتها لوظائف الأمومة التى سلحتها لها بكل سلاح من تركيب الجسم ومن درجة الجمال — فما بالك بوظائف الرجل تزاحمه فيها ؟

مبين عنام